٦١ ابن دقيق العيد قاضى القضاة بمصر

ولد هذا العالم الجليل بقوص عام خمس وعشرين وستمائة، ونشأ فى بيئة علم وفضل، فقد كان أبوه مجد الدين بن دقيق العيد من أعلام المذهب المالكى، فتفقه على يديه، ودرس جوانب هذا المذهب الذى يعنى بالحديث، وتعلم على الإمام العز بن عبد السلام الذى كان شافعياً، فتفقه على يديه، ودرس جوانب المذهب الشافعى الذى كان يعنى بالرأى، وبذلك اجتمع لديه دراسة المذهب المالكى والمذهب الشافعى، إلى جانب دراسته للعلوم غير الفقهية على شيوخ وعلماء زمانه، حتى نبغ فى العلوم العقلية والنقلية معاً، فكان للعلوم جامعاً وفى فروعها وفنونها وتفصيلاتها بارعاً... ذلك هو العالم المجدد تقى الدين بن دقيق العيد.

كان يتسم بشخصية فذة، تجعل للعلم ورجاله هيبة وتقديراً، فكان لا يخشى فى الحق لومة لائم، وكان تقديره للإنسان إنما لعلمه وفضله، وليس لجاهه أو سلطانه، حتى إذا خاطب من الناس أحداً ـ سلطاناً منهم أو غير سلطان ـ ناداه بقوله: «يا إنسان» أما إذا كان المخاطب فقيهاً كبيراً ناداه بقوله: «يا فقيه»، ولايسمح بهذه الكلمة إلا لأهل العلم والفضل من أمثاله.

وعلى الرغم من هذا فقد كان يجد تقديراً واحتراما من الملوك والسلاطين، فعندما حضر إلى السلطان المملوكى حسام الدين لاجين قام إليه السلطان وقبَّلَ يده، وهو يطلب رضاءَهُ ودعواته، فلم يزد الإمام تقى الدين على أن يقول له: «أرجوها لك بين يدى الله عز وجل»، إشارة إلى أن هذا الصنيع من السلطان

مهما كان لايمحو المظالم التى يشكو منها الناس، والتى يعلمها الله وحده الذى بيده الحساب والعقاب.

وهكذا كان أسلوبه مع سائر الأمراء وكبار رجال الدولة وقتئذ، والسبب التفاف الناس حوله، وأنه فى غنى عن السلاطين والأمراء.. إلى درجة أنه عندما عرض عليه منصب قاضى القضاة على المذهب الشافعى بمصر، وهو منصب يتمناه أى عالم أو فقيه، رفضه فى إباء شديد ولم يقبله إلاَّ بعد أن قيل له: إن لم تفعل ولَّوْا فلاناً أو فلاناً، وهما رجلان لا يصلحان لهذا المنصب الحساس، لسمعتهما التى كانت محل شك، لما اقترفاه من أخطاء فى حق الشعب.

وهنا رأى الإمام تقى الدين بن دقيق العيد أن القبول أصبح واجباً يحتمه عليه أمر دينه، ومع هذا عزل نفسه أكثر من مرة غير آسف. فكانوا فى كل مرة يعيدونه بعد تنفيذ ما يطلب، وهو الرجل الصالح والخير. حتى ظل فى منصب قاضى القضاة إلى أن تُوفى عام اثنين وسبعمائة للهجرة.

ورب سائل يسأل: ولماذا يرفض إمامٌ عَلَى علْمٍ مثل ابن دقيق العيد أكبر المناصب.. أو أنه يعزل نفسه منها بين آونة وأخرى؟

إن السبب الذى تذكره المصادر والروايات هى أن هذا الإمام كان غير راضٍ عن حالة الحكم فى عصره، ولا عن استئثار أولئك المماليك ـ وهم الغرباء المجلوبون شراءً بالمال ـ بحكم مصر والشام. وليس ببعيد عن ذهنه هذه الفتوى التى أعلنها أستاذه الإمام العز بن عبد السلام بعدم شرعية تولى المملوك المشترى حكم بلاد المسلمين، لهذا ولغيره من أسباب كان الإمام ابن دقيق العيد يأبى المنصب، وإذا قبله كان يعزل نفسه منه، حتى لا يقوم بعزله حاكم لا يتعرف به أصلا بحكم الشريعة وكان يضمن قصائده مخبوء نفسه، حيث كان يشير إلى ذلك قائلا:

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل مرزولون بينهم
قد أنزلوا لأناً غير جنسهم ... منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فمالهم فى توقىٍّ ضَيْرنا نظر ... ومالهم فى ترقى قدرنا همم

على أن الباحثين يتساءلون: متى كانت شكوى ابن دقيق العيد؟ هل كانت وهولا يزال ببلده قوص لا يعرف أولئك الحكام ولا يعرفونه؟ أم كانت شكواه بعد

أن ضُرِبَ بقوله - فى بلده قوص - عُرض الحائط فتركها إلى القاهرة وبلغ فيها ما بلغ من السلطان، فكان الفساد هو الفساد، فى قوص أو فى القاهرة، وكانت عواقب ذلك الفساد ذهاب الدنيا عن المسلمين ظاهرة لا تخفى على أحد، وهو ما أدركه وسجله الطبرى فى القرن الثالث الهجرى، فما بالنا وقد وصلنا إلى القرن السابع للهجرة، حيث زاد الفساد وتفاقم وصار ينذر بالخطر؟

والجواب على ذلك فى كلمة واحدة: هو كل ذلك، وهو ما آلت إليه حال الأمة الإسلامية من فُرْقَة وتمزق، وسيادة للأجنبى على أرضها، حتى ولو كان مملوكاً يُبَاع ويُشْتَرى.

ولعل الإمام تقى الدين بن دقيق العيد كان قد أدركه اليأس من صلاح الأحوال، فسلم أمره لله يفعل ما يشاء، فهو على كل شئ قدير، وإلاَّ فما معنى قوله فى قصيدة طويلة منها:

قد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آسِى
فلا ترج الناس فى حاجة ... ليسوا بأهل لسوى الياسِ
ولا ترد شكوى إليهم فلا ... معنى لشكوى إلى قاسِ
لا رغبة فى الدين تحميهمُ ... عنها ولا حشمة جُلاسِ
فأهرب من الخلق إلى ربهم ... لا خير فى الخلطة بالناسِ

وعلى الرغم من هذا الوضع المتدهور فى الأمة الإسلامية نجد لابن دقيق العيد لفتات ولوامع تدل على أنه كان من أصحاب النزعات التجديدية فى التفكير الإسلامى، حتى إن العالم المرحوم عبد المتعال الصعيدى اختاره واحداً من المجددين فى القرن السابع الهجرى.

من هذه اللفتات أنه لمَّا جاء التتار إلى الشام عام ثمانين وستمائة، وَرَدَ مرسومُ السلطان إلى القاهرة بعد خروجه للقائهم أن يجتمع العلماء ويقرءُوا البخارى، ففعلوا، حتى إذا بقى منه شئ أخروه إلى اليوم التالى، ولما كان اليوم التالى رأوا ابن دقيق العيد فى المسجد، قال لهم: ما فعلتم ببخاريكم؟ فقالوا: بقى منه جزء أخرناه لنختمه اليوم. قال لهم: «الفضل الحال من أمس العصر». وهو يعنى ما فعلتم ببخاريكم أن ينبه إلى أن النصر قد تم للمسلمين قبل الانتهاء من قراءة البخارى،

وأنه تم بما أمر الله بإعداده من قوة ومن رباط الخيل، وليس بقراءة أو نحوها من هذا التفكير.

على أن الذى يقطع عند الدراسين والعلماء والفقهاء على أن ابن دقيق العيد كان من مجددى الإسلام فى القرن السابع الهجرى أمران: أولهما ما ذكره فى مقدمة «شرح الإلمام» من أنه يجب أن يجعل الرأى هو المأموم. والنص هو الإمام، فترد المذاهب إليه، وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه، ولا يصح أن يجعل الرأى ـ الذى هو فرع للنص ـ أصلاً يرد النص إليه بالتكلف والتخيل، حيث يقول: «ويحمل على أبعد المحامل، بلطافة الوهم وسعة التخيل، ويرتكب فى تقرير الآراء الصعب، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس، وتستنكره العقول».

والأمر الثانى.. انتصاره لتلك المختصرات المعقدة التى عرفت فيما بعد باسم المتون. وكان ابن الحاجب وأقرانه من المتأخرين هُمُ أول من سَنَّ هذه البدعة فى العلوم، وقد اختلف علماء القرن السابع الهجرى فى أمر هذه المختصرات، فكان ابن دقيق العيد من أنصارها، ومن أنصار الاعتماد عليها فى التعليم.

ولعله بانتصاره لهذه الطريقة التى قُدِّرت لأولى الغلبة بعده، وكان أصحابها هم المجددين من المسلمين عبر القرون.. ولعل هذا كان من أسباب اتفاقهم على أنه من مجددى القرن السابع الهجرى.

وعن سبب تسمية جده لأبيه «دقيق العيد» كما يسجل معاصره الأدفوى: أن هذا الجد كان عليه فى يوم العيد طيلسانٌ شديد البياض، فقال بعضهم لبعض: كأنه دقيق العيد. فَلُقِّب به هو وأبناؤه وأحفاده.

ولعل خير ما نختم به الحديث عن ابن دقيق العيد هو ما جاء فى وصفه على لسان الأدفوى، حيث يقول: «هو التقى ذاتاً ونعتاً، والسالك الطريق التى لا عِوَجَ فيها ولا أَمْتاً، والمحرز من صفات الفضل فنوناً مختلفة. وأنواعاً شتى، والمتحلى بالحالتين الحسنيين صمتاً وسمتاً..».

ولقد توفى هذا العالم الجليل سنة اثنتين وسبعمائة، ودفن بسفح المقطم، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً، سارع الناس إليه، حتى وقف جيش من البشر ينتظر الصلاة عليه، ورثاه جماعة من الأدباء والعلماء بالقاهرة وقوص، مؤكدين أنه كان صالحاً وتقياً، عالماً وفقيهاً، أديباً وشاعراً.

* * *